ملخص البحـــث

تُعد قضية «رؤية الله» فى الإسلام من قضايا الغيب المتصلة باليوم الآخر، كانت ولا تزال محلاً للخلاف ، وقد وردت بها دلالة النص القرآنى وأثبتتها أحاديث صحاح قطعية الثبوت، غير أن العقل عند مواجهته للنص الدينى قد أفرز عند تناوله قضية «الرؤية» كثير اختلاف بين اتجاهات مفكرى الإسلام، بل وبين فرق الاتجاه الواحد مثلما وقع بين المتكلمين والذى وصل حد التناقض التام فى النتائج، وربما كان المؤثر الأول فى خلق هذا التناقض هو عدم التلازم المنطقى بين المنهج والمذهب عند كل فريق، حيث انطلق منهج كل فرقة إسلامية وفق مذهب معتمد سلفاً، فكان حتمياً عندها أن تكون النتائج حسبما اقتضت المذاهب المقررة، وجرّ ذلك إلى منهجية أحادية النظرة تنأى عن الشمولية التامة الأبعاد لقضية الرؤية.

وبسبب أن الدراسات التى تناولت أصول العقيدة لم تنفرد إحداها بالتركيز على قضية الرؤية، ولظهور دعاوى إنكار السنة المطهرة وما تحمله من نوايا تضييع القرآن والدين، وللخلاف بين اتجاهات المسلمين بشأن المحكم والمتشابه من الآيات، وما جره ذلك من تناقضات وأحكام متباينة بين مفكرى الإسلام انعكست على خاصتهم وعامتهم معاً، وبسبب أن الغاية هى تثبيت أصول الدين وفروعه، ولأن الهدف ظهور منهجية شمولية لفهم وتحليل قضية الرؤية من منظور متكامل الأبعاد تراعى ضرورات العلم اليقينى وأصول الشرع ومعطيات اللغة وضرورات الواقع ، كانت تلك الدراسة التحليلية النقدية المقارنة لرؤية الله تعالى عند مفكرى الإسلام من متكلمين وفلاسفة ومتصوفة.

انطلقت تلك الدراسة من مفهوم «الرؤية» بغية تحديده لغة واصطلاحاً لتصل إلى بيان أن هناك علاقات بنائية وظيفية بين الرؤية ومفاهيم لغوية عدة هى: الإحساس، والإبصار، المعاينة، الإطلاع، المشاهدة، الإدراك والنظر ، وإن الرؤية بتمامها تشمل مراحل عدة أثبتتها معايير اللغة والعقل والعلم التجريبى والفلسفة وتتضمن:

- آلية الأداء الوظيفى فى الحاسة الجارحة وهى العين.
- نشاط المراكز الدماغية فى العقل.
- حركة القلب للتناغم مع هذا النشاط، وما يستتبعه من شعور.

- الانفعال الوجداني واندماجه مع تلك الحركة القلبية العقلية الحسية.
- والتآزر النفسي - البدني للانشغال بالمرئي عما عداه.

فإنها تمثل أبعاداً متتابعة وربما متشابكة للرؤية، وإن الترادف المتوهم في الألفاظ الدالة على الرؤية ليس ترادفاً لفظياً وإنما يعبر عن صلة ما بين تلك الألفاظ ولفظ الرؤية.

ولأن مفهوم «رؤية الله» قد ينصرف في الأذهان إلى عديد من المعاني، فإن البحث وهو يشير إليها جميعاً فإنه يركز على رؤية الله في اليوم الآخر، وكان المدخل الآمن لتحليل قضية الرؤية هي استقراء النص الديني من القرآن ومن السنة الصحيحة، فتوصل البحث إلى أن الآيات المتعلقة برؤية الله تعالى يوم القيامة هي من المتشابهات حيث يفهم من ظاهر بعضها جواز الرؤية ويفهم من البعض الآخر نفيها، فيما وردت آيات لا يصرح ظاهرها بجواز أو نفي للرؤية، كما وردت أحاديث صحاح من السنة الشريفة لتؤكد وقوع الرؤية، لكن العقل الإسلامي أمام تلك النصوص قد حددته مذاهب معدة سلفاً هي التي شكلت المنهج لدى كل اتجاه فكري في استنتاج عقيدته في الرؤية، وربما لهذا غلبت النظرة الأحادية - دون الشمولية-على هذا الاستنتاج.

اعتقد كثير من متكلمي الإسلام وعلى رأسهم أهل السنة والأشاعرة والماتريدية وشايعهم السلفيون وكثير من الشيعة والكرامية، اعتقدوا بالرؤية العيانية، فيما ذهب المعتزلة والزيدية والخوارج والمرجئة للقول برؤية قلبية، وتحرزوا من القول بالمعاينة في الرؤية حذراً من الوقوع في التشبيه والتجسيم الذي طال بعض القائلين بالمعاينة، وغلب الطابع الفلسفي على نظرية الفلاسفة المسلمين في الرؤية، فلم يقروا من الرؤية إلا بجانبها العقلي البحت مع ما طبع نظريتهم من مسحة صوفية ظاهرة، بينما اتجه المتصوفة إلى التأكيد على الرؤية الذوقية وإقرارها في الدنيا وفي الآخرة، وتعددت ظاهراتهم ونظرياتهم التي غلب عليها طابع التجربة الفردية واللغة الخاصة المعبرة عن أحوالهم ومقاماتهم لنيل هذه الرؤية.

اعتمد كل اتجاه فكري في الإسلام لإثبات صحة مذهبه كل الحجج والبراهين العقلية والنقلية، وساق الأدلة التي من شأنها أن تقوى من عقيدته في الرؤية، ويبطل عقيده غيره،

وقدم من المقدمات ما يؤكد صدق نتائجه، مع اعتبار الاختلاف الحاصل بين تلك الاتجاهات فى المنهج والمذهب معاً، حيث انطلق المتكلمون من مقدمات اعتبروها بديهية وصادقة بذاتها وهى النصوص الدينية من القرآن والسنة، ورغم ذلك تباعدت وتناقضت فرق المتكلمين بشأن الرؤية لاعتبارات منهجية ومذهبية، بينما جرد الفلاسفة عقولهم من تلك المقدمات متأثرين بالنزعة الفلسفية اليونانية فلم تكن عقيدتهم فى الرؤية إلا عقلية صرفة، فيما تأثرت مذاهب المتصوفة بكثير من تجاربهم الذاتية الفردية فغلب عليها كثرة الظاهرات الذوقية فى الرؤية وغاب عنها التمييز البيّن بين رؤية الدنيا والرؤية يوم القيامة.

ويخلص البحث إلى أن جوهر الخلاف بين المسلمين فيما تنازعوا عليه من قضية الرؤية حاصل من جهة اللغة، غير أن هذا لا ينفى أثر عوامل أخرى سياسية ومتغيرات دينية وفكرية متعددة، فإن لفظ «الرؤية» يستمد دلالته الاشتقاقية والاصطلاحية من متغيرات الواقع والعلم التجريبى اليقينى وإعمال الفكر وما يقره التنزيل الإلهى، ولذا وردت فى اللغة ألفاظ تمثل الرؤية بكافة أبعادها من : المعاينة الحسية، وانطباع الصورة فى المراكز الدماغية وتفسيرها، وانتقال أثرها للقلب وتحريكه الحركة الانفعالية الموائمة والتناغم الوجدانى مع المرئى.

وحقائق البعث والحشر والمعاد والحساب واليوم الآخر وإن تكن مغايرة لمعايير الشاهد فى الوجود الدنيوى، فإنها وتطبيقاً للعدل الإلهى المطلق تستوجب ماهية متكاملة للإنسان تتحقق بها ولها وفيها دلالات الرؤية التامة يوم القيامة والتى استوعبتها الآيات القرآنية والأحاديث الصحاح، وعلى ذلك يمكن الاستنتاج أن الاتجاهات الفكرية فى الإسلام – إذا ما تصورنا قضية الرؤية هى المركز الذى دارت حوله تلك الإتجاهات – قد وقعت على البعد نفسه من هذا المركز، ولكن كل منها فى جهة مغايرة، تختلف عما سواها من الجهات.

وإن مثل هذا الفهم للنص الدنى، وتلك المنهجية الأحادية النظرة تفرض ظهور منهجية شمولية تأخذ – عند تحليل وفهم النص الدينى – بمعايير العلم ومعطيات الواقع وأصول اللغة وضوابط التنزيل، للوصول إلى فهم متكامل الأبعاد لقضية «رؤية الله» سبحانه وتعالى وقضايا العقيدة عموماً، وذلك بهدف تضييق الاختلاف والتباين بين الاتجاهات الفكرية فى الإسلام.